مقالات الأستـــاذ سعدالدين شراير

بين السياسة والمبادىء

تنطق الألسنة، وتكتب الأقلام، وتخط الكتب، وتناقش المجالس، لفظة المبادئ، وتصرفها إلى الأنفس، بمدح حاملها، أوذم فاقدها.

والجلُّ لا يميزها عن القيم، ولا يدرك ما بينهما من عموم وخصوص، وموقعَ كلٍّ منهما من الحياة الفردية والجماعية، وأيتها تمثل المنهج الإنساني المقبول أوالمرفوض، واختلافَ الناس في اعتبارها، ثم في ترتيبها لبناء أسلوب حياة.

فأعيقت حركة النفع والتدافع، بشبهة التّضَّاد بين المطلوب المرغوب والمبادىء.

إن الذي نعرفه من دراساتنا أن المبادئ هي الثوابت الصالحة في الدنيا، الموافقة لشرع الله ودينه، ومنها سننه في الكون، لكن القيم هي تلك الموازين والمعايير التي يجعلها الفرد أوالهيئة أوالأسرة بنودَ حياة، يبني عليها المنهج بترتيب ذهني، وأعراف اجتماعية، ومكتسبات عقلية، وتجارب يومية، ولذلك قد نختلف في القيم، باختلاف الأفراد، والهيئات، والبيئات، وقد نتفق على بعضها، ونختلف في ترتيبها.

إن كثيرا من هؤلاء لو طلبنا منه سرد المبادئ التي يتغنى بها زورا وبهتانا لتلعثم.

وقد يجهل أنه مستسلم لنفسية مريضة، ومعنويات متعالية فقط، أراد تفسيرها بمصطلح المبادئ، وهو بعيد المنال.

تعجُّ بأصواتهم الدنيا، ضجيجا مفسدا للحياة، وليته لم يكن له صدى يفتن العامة، فعطلوا بها حركة التاريخ والعمران والتكافل والبناء والتحضر .لم يفهموها فأفشلوا مشاريع نهضة للأمة.

دمَّروا مجهودات غيرهم بتطاول أعرج على فلسفة الحياة .تأرجحوا بين الإدبار والإقبال بسراب في الأذهان سمي زورا المبادئ.

كثرت فيهم العنترية الهزيلة بالإصرار السقيم على ضبابية مبهمة اتهمت بها المبادئ.

ظاهرهم الثبات، وعمق أسقامهم العدوان على الغير بهذه الشبهة السخيفة، والتعالي بها.

أدى إلى تضييع فضيلة وثواب التعاون على الخير بمعناه الشرعي الواسع،

مع الموافقين والمخالفين لعنجهية مبتذلة، تملأ الدنيا صخبا خاويا.
إن الحقيقة التي أراها حسبما لقنتنا العلوم، ومنها السيرة النبوية الشريفة، ومراس الدنيا، ومجالس المثقفين وأهل العلم، والزخات العلمية من غير المسلمين، أن القيم الصالحة التي يحملها المؤمن أوالثابت أوالنزيه أوالنظيف في قلبه وعقله ووجدانه ويترجمها سلوكه، لم تكسر حركة مكرمةٍ تجاه الغير ولو باينتنا قيمهم، إذا توافق الموقف المعني وقيمنا.
وقبل التطرق إلى علاقة العمل السياسي بالقيم والمبادئ، أنصح من يتزيى بها انتفاخا أن يجرب إمساك ورقة وقلم لتدوين مبادئ الزمان والشرع، ويستخرج منها قيما يعتبرها معايير منهجه المتكامل في الحياة، ثم يستنتج احتمال الاحتكاك بها مع غيره، تجانسا وتغايرا، وتقدير النتائج منفعة أومفسدة.
ولينظر في وصف عمله صوابا أم خطأ، إن وجدها بعملية الاستقراء نبعَ أعمالٍ كثيرةٍ محتواةٍ فيها أم لا.
وليسأل نفسه عن معنى وتعريف المواقف، ومصادرها، وتناسقها معها، أم مع مجرد أهواء طائشة.
وليفحص تمييز الناس من عدمه بين المواقف والمبادئ والقيم.
لأنها ليست رحمًا للتخاصم والتباغض والتدابر والخيلاء والتعالي ومختلف النرجسيات المزاجية.
إنما هي قواعد تضع البشرية في أرقى أحوالها، دينًا، وعقلاً، وحضارة، وإنسانية، إلا من تجاوز.
فإذا صح منه الاختبار اتجه إلى قراءة الجزء الثاني من مقالنا حول علاقة السياسة بالمبادىء والقيم، ومكانتهما في الاحتكاك بالمنافسين، ومرتع الاتفاق، وتأثيره على ما نحمله، استيلابا، وثباتا.
ولا يفتئتنَّ علينا أحد من المنتسبين وهما إلى السلفية بتحريم السياسة لعلة الفتن الحزبية، ومن العلمانيين بإرادتها عوجًا ووصفها نفاقا وكذبا كي يصدوا عنها المخلصين من الوطنيين والإسلاميين المعتدلين.
لأنها في اللغة تعني حسن التسيير، فقولنا ساس الأمر أي سيَّره، ومنه ساس الدوابَّ أي ربَّاها وروَّضها واعتنى بها، وساس أمور الناس، أي دبَّرها وصرَّفها.

وبناء عليه ليس بالضرورة أن تسَيَّسَ مصالح العباد بالكذب والنفاق حتى يمنعها البعض بستار الشريعة، أويُعَمِّي عنها البعض كي تخلو لهم مراكز القرار.
وبهذه المعاني هي تسيير حكم الرعية أكثر منه تصريف المنافسات والخصومات الحزبية، لكنه غلب استعماله في الدلالة عليها فتقيد به.
وفي هذا الإطار قد يضطر الفرد أوالهيئة من أجل إسعاد الشعوب وخدمتها، إلى الاحتكاك بآخرين مخالفين في القيم، أوبعضها.
وهذا مجال قد يُفَوِّتُ به جاهله كثيرا من مصالح العباد لتعنُّت وتصلُّب يتزيَّى زورا بالمبادئ، أوالقيم، ولو مع مسلمين، أويُذهب سانحة درء ما أمكن من المفاسد على الأقل.
إن العمل السياسي مع المخالفين المسلمين، غير ما يكون مع الكافرين، ومع ذلك لم نجد في القرآن الكريم ما يحرم التعاون معهم في إطار قيمنا.
إن الله تعالى أوجب على المسلمين التعاون على البر والتقوى مع الكل ومنهم الكفار، والنص الدال على ذلك جاء في سورة المائدة مرتبا بعد ذكر الصادِّين عن المسجد الحرام مباشرة في قوله تعالى:
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2). سورة المائدة.
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مبسوطة مُعَرِّفَةٌ هذه الحقيقة.
عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: شَهِدْتُ حِلْفَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَزُهْرَةَ ، وَتَيْمٍ ، فَمَا يَسُرُّنِي أَنِّي نَقَضْتُهُ وَلِيَ حُمْرُ النَّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ الْيَوْمَ لأَجَبْتُ عَلَى أَنْ نَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَأْخُذَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ. رواه البزار في مسنده.
ولم يمتنع ما لم يخالف قيمه الملتزم بها، دون اعتبار قيم الآخرين.
بل إن بعض جزئيات التعايش والتعاون مع غيرنا قد يسهم في تكريس قيمنا، وحلف الفضول كان في ذلك الإطار، رغم أنه حدث في الجاهلية ورحب به النبي صلى الله عليه وسلم لو دعي إليه في الإسلام.

إن التعاون مع الغير لا يلتفت فيه إلى قيمهم ما ترجح فيه جلب المنافع ودرء المفاسد.

وفي المدينة أملى وثيقتها التي نسميها الآن الدستور، وكانت شاملة لكل مواطني المدينة، من المسلمين واليهود والنصارى والمشركين، بما أنها لا تهدم القيم الإسلامية.

وفي صلح الحديبية اتفق على بنود كان مظهر بعضها كاسرا شوكة المسلمين، بما أنها لا تلغي قيم المجتمع الإسلامي، بل كان من بنودها حرية اختيار التحالف مع قريش أوالمسلمين، فتحالفت قبيلة خزاعة مع النبي صلى الله عليه وسلم، للدفاع المشترك، ونفذه النبي صلى الله عليه وسلم بعيْد اعتداء قريش عليهم.

إن على المتمسكين حقيقة أوظاهرا بمبادىء الإسلام وقيمه [رغم الجهل بها]، الوقوف عند هذه المعاني مليًا لتسيير أعمالهم مع غيرهم خدمة للبلاد والعباد من ورائهم.

إني أقدر سماكة ذلك الحاجز النفسي بين المختلفين، الذين لم تجمعهم حواضن متوافقة، لذلك إما الاستعداد لما سبق من التوصيف والاستدلال الشرعي، وإلا فالانسحاب من البداية، عوض الخضوع لقواعد لم يصنعوها، ثم إذا ظهرت النتائج يتسللون من مقتضياتها بحجج لم تشَعَّر من قبل.

فلا أظن انعدام إمكان التعاون في بلادنا بين الهيئات المختلفة من أحزاب وتنظيمات فيما يتفقون عليه، إلا إذا خرَّبَ قيمة معتبرة.

وقديما قال المرشد العام لتنظيم الإخوان المسلمين الشهيد حسن البنا رحمه الله، نعمل فيما اتفقنا فيه، ويعذربعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

فنرجو ألا تكون شماعة المبادئ والقيم جدارا ماكرا في وجه منافع كثيرة نقدمها للعباد والبلاد، أوبعض مفاسد نقيهما منها، في أي مركز ومنصب مشروع كان.